

مقبرة الطفولة... وجوقة النار

17 أغسطس 2025

فكر وتحليل

2 دقيقة قراءة

www.saudieinstein.com

مقبرة الطفولة... وجوقة النار



ثُمَّة فِي غِزَّة طِفْل بِلَا اسْم.

كَانَ لَهُ اسْمٌ، لَكِن الْقَنَابِلُ أَخَذَتْهُ مَعَ أَقَّهِ؛ كَانَ لَهُ
بَيْتٌ، لَكِن الصَّوَارِيخُ أَخَذَتْهُ مَعَ أَبِيهِ؛ كَانَ لَهُ حِلْمٌ،
لَكِن الْحَرْبُ أَخَذَتْهُ مَعَ طِفْلُوته. جَلَسْتُ أَمَامَهُ،
فَإِذَا فِي عَيْنَيْهِ تَارِيخُ الْبَشَرِيَّةِ كُلِّهِ: قَابِيلُ يَرْفَعُ
الْحَجَرَ عَلَى أَخِيهِ، نِيرُونُ يَشْعَلُ رُومًا لِتُكْتَبَ لَهُ
أَسْطُورَةٌ، وَالطِّغَاةُ يَرْقُصُونَ عَلَى جِثَثِ الْأَبْرِيَاءِ.
نَظَرْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ بِصَوْتِ كَأَنَّ هَمْسَ الْمَوْتِ:

“أَكُنْ عَلَيَّ أَنْ أَفْتَحَ عَيْنَيَّ لِأَرَى الْعَالَمَ مَقْبَرَةً؟”

وَبِالْقُرْبِ مِنْهُ، طِفْلَةٌ صَغِيرَةٌ تَحْمِلُ دُمِيَّةً مُحْتَرَقَةً،
تَهْدِيهَا كَأَنَّهَا طِفْلَهَا، وَتَغْنِي بِصَوْتِ مَرْتَعَشٍ:
“نَامِي يَا صَغِيرَتِي... فَالْقَبْرِ أَدْفَأُ مِنَ الْبَيْتِ،
وَالْتَرَابِ أَلِينُ مِنَ الْحِصْنِ.”

تَوَقَّفْتُ مَذْهُوَلًا، فَإِذَا بِهَا تَلْتَفَتَتْ إِلَيَّ بِحِكْمَةٍ

تفوق عمرها: "لا تحزن يا عم. نحن تعلّمنا أن نلعب بين القنابل، وأن نغني للموت حتى يخل من نفسه."

وبينما كنت أمشي بين الركام، لمحت دائرة صغيرة من الأطفال وقد أشعلوا نارًا ضئيلة، يتدقّأون بها من برد الموت لا من برد الشتاء. كان أحدهم يروي: "رأيت في حلمي أنني أطيّر بعيدًا، حيث لا قنابل ولا دخان."

وقالت طفلة أخرى: "أنا حلمت أن أُمي خبزت لنا رغيفًا، وضحكنا كما كنا نضحك من قبل." ثم همست أصغرهم، كأنها نسيم في مقبرة: "وأنا حلمت أنني كبرت وصرت معلمة، وعلمت الأطفال أن الحرب كانت كابوسًا انتهى ولن يعود."

غزة... طفلٌ بلا اسم، وطفلةٌ بلا حضن، وجوقةٌ
من الأحلام المذبوحة. مدينةٌ ضُلبت بين سكين
الداخل وساطور العدو؛ بين شعاراتٍ أحوّلت
دماءها قرباناً، وذرائعٍ جعلت بيوتها رماداً. مرآة
تكشف أنّ روما أُحرقت لتبني مجدها، أمّا غزة
فتُحرّق لتكسر أطفالها. وحين تكتب الإنسانية
وصيّتها الأخيرة، ستُسجّل الحقيقة هكذا: لكم
أطفالكم النائمون في أسرّتهم... ولنا أطفالنا
النائمون في قبورهم.